اعتقاد الصاحب إسماعيل بن عبَّاد الحنفي[1]

(385هـ)

د. عايض بن سعد الدوسري

1441هـ - 2020م

(1) **تنبيه:** هذه الورقة هي جزءٌ مستلٌ من بحثٍ علمي للباحث نفسه، كتبه قبل مُدةٍ، وسوف يُنشر -بمشيئة الله- قريبًا ضمن كتاب، وجميع التوثيقات والإحالات للنصوص والإشارات ستكون مُتاحة في ذلك الكتاب.

في العراق، عاصمة الخلافة العباسيَّة السُّنِّيَّة، وفي الريِّ كذلك، فَقَدَ أهل السنة السيطرة السياسيَّة، وحَلَّتْ في السلطة قوة عسكريَّة وسياسيَّة جديدة، تتخذ من الاعتزال التَشَيُّعِ مذهبًا وشعارًا لها، وهي الدولة **البويهيَّة**. وتحت ظل ورعاية الدولة **البويهيَّة**، في العراق والريِّ في تلك الفترة، بَرَزَ تزاوجٌ وتلاقحٌ وتعاونٌ بين المعتزلة والشيعة، وبين الإماميَّة والزيديَّة، وأصبحت تلك الدولة محضنًا لتلك المذاهب، وداعمة لها ومشجعة على اعتناقها، ومركزًا محوريًا لبث الدعاة والكتب والرسائل الاعتزاليَّة والشيعيَّة، ومنبرًا لكسب الأنصار لهذه المذاهب.

وقد حَظِيَتْ المعتزلة خصوصًا برعاية وعناية الدولة **البويهيَّة**، وهي دولةٌ واسعةٌ وقويةٌ وممتدة الأطراف، ومتعددة المدن والبلدان، شملت أهم مدن الإسلام وحواضره الوسطى، وخضع الناس لها بالطاعة، وكان حجم تأثيرها فيهم كبيرًا. وكانت هذه الدولة بشكلٍ عامٍ داعمة للاعتزال والتشيِّع. وكان أثر هذه الدولة الثقافي في غاية العمق في البيئة الإسلاميَّة، خصوصًا ما يتعلق بخدمة الاعتزال، من خلال نشر روح الجدل والمناظرات، وكثرة المكتبات والكتب والرسائل. وقد وُصِفَتْ بعض مكتبات الدولة البويهيَّة، فكانت أعجوبة من أعاجيب الدنيا، في تصميمها وبنائها، وفي كمية الكتب التي حوتها، وفي طريقة تنظيمها وتصنيف رفوفها، والمواد التي صُنِعَتْ منها.

كذلك مَثَّلَ هذا العصر، مرحلة ذهبيَّة للتشيع، بفرقه الثلاث الرئيسة، وهي: الزيديَّة والإماميَّة والإسماعيليَّة. فقد حَظِيَ التشيع بشكلٍ عام برعاية وعناية ودعم الدولة البويهيَّة، في العراق وخراسان وغيرهما من البلدان، ولجأ إليها كثيرٌ من علماء وفقهاء الإماميَّة والزيديَّة، وكان لكبار علماء الإماميَّة، كالشيخ **المفيد** (413هـ) مثلاً، مكانة جليلة وهيبة وحرمة عند سلاطين الدولة البويهيَّة. وقد مَكَّنَتْ الإماميَّة، خصوصًا، من الجهر بعقائدهم في كثيرٍ من المدن الخاضعة لسلطتها في أوقات عديدة، وكانت رسوم التَشَيُّع فيها ظاهرة.

ومذهب المعتزلة بشكلٍ عام قد مر بمرحلتين سياسيتين ذهبيتين، هما:

الأولى: مرحلة الدعم العباسي، خصوصًا منذ بداية عهد **المأمون** حتى نهاية عهد **الواثق**.

والثانية: مرحلة الدعم **البويهي**، وخصوصًا أثناء وزارة **الصاحب بن عبَّاد**، الذي أعطى

الاعتزال ورجالاته وتراثه، دعمًا قويًا وتشجيعًا رسميًا.

وقد كان **الصاحب إسماعيل بن عبَّاد** (385هـ) أهم وأقوى وزراء تلك الدولة وأكثرهم تأثيرًا، وكان من أكبر داعمي الاعتزال. حتى عُدَّ من أهم الشخصيات العلميَّة والسياسيَّة التي ارتبطت بمذهب المعتزلة، فـ"الغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة"، "مشتهرًا بمذهب المعتزلة داعية إليه". وهو مع دعمه وتبنيه للاعتزال كان يُنسب أيضًا من قِبَلِ علماء السنة والشيعة إلى التَشَيُّع، وكان مع اضطهاده لمخالفي المعتزلة، يُعَظِّمُ شيوخ الإماميَّة والزيديَّة ويُكرمهم.

ومع شبه اتفاق معظم العلماء والمؤرخين من الطوائف المختلفة على ثبوت انتمائه إلى المعتزلة في الأصول، فإنَّهم قد اختلفوا في درجة هذا التشيع الذي يُقال إنَّ **الصاحب بن عبَّاد** يعتنقه وينتمي إليه.

والسؤال هنا: **ما الاعتقاد الحقيقي الذي ينتمي إليه الصاحب إسماعيل بن عبَّاد؟**

هل سنيٌ معتزليٌ؟ أم مُتشيعٌ معتزليٌ؟ أم زيديٌ معتزليٌ؟ أم إماميٌ خالصٌ؟

ذهب جملة من علماء الإماميَّة إلى كَونِهِ من الشيعة الإماميَّة. ومن أدلتهم وشواهدهم على تلك النسبة: أنَّه كان يُعظم شيوخ الإماميَّة ويُكرمهم، **كالحسين ابن بابويه القُمي** (كان حيًّا سنة 378هـ) ، وهو أخو الشيخ **الصدوق** (381 هـ)، وكلاهما أَلَّفَ كتابًا وأهداه **للصاحب بن عبَّاد**. وأنَّ **أبا جعفر محمد بن علي ابن بابويه القمي** (381هـ)، =الشيخ الصدوق، قد أَلَّفَ كتابه المعروف **(عيون أخبار الرضا) للصاحب ابن عبَّاد**، وذَكَرَ في مقدمته أنَّ سبب تأليفه هو أنَّه وقع له قصيدتان من قصائد **الصاحب** أهدى فيهما السلام إلى عليٍّ الرضا بن موسى، ثامن أئمة الإماميَّة، وأنَّ الشيخ **الصدوق** لم يجد أفضل من أن يقدم له مثل هذا الكتاب الذي فيه أخبار الشيعة عن أهل البيت. يقول الشيخ **الصدوق** ما نصه: "فصنف هذا الكتاب لخزانته المعمورة ببقائه، إذ لم أجد شيئًا آثر عنده وأحسن موقعًا لديه من علوم أهل البيت –عليهم السلام–؛ لتعلقه بحبهم، واستمساكه بولايتهم، واعتقاده بفرض طاعتهم، وقوله بإمامتهم، كرامة لذريتهم، أدام الله

عزه وإحسانه إلى شيعتهم، قاضيًا بذلك حق إنعامه، ومتقربًا به إليه، لأياديه الزهر عندي، ومننه الغرّ لدي، ومتلافيًا بذلك تفريطي الواقع في خدمه حضرته، راجيًا قبوله لعذري، وعفوه عن تقصيري، وتحقيقه لرجائي فيه وأملي، والله -تعالى ذكره- يبسط بالعدل يده، ويعلى بالحق كلمته، ويديم على الخير قدرته، [و] يسهل المحان بكرمه وجوده. وابتدأت بذكر القصيدتين لأنهما سببٌ لتصنيفي هذا الكتاب، وبالله التوفيق".

وعَدَّهُ **أبو الفتوح الرازي، جمال الدين حسين بن علي الخزاعي الرازي النيسابوري** (552هـ) من الإماميَّة؛ لأنَّ **الصاحب بن عبَّاد** وضع في نقش أحد خواتمه هذه العبارة: "وبالخمس توسلت"، ونَقَشَ هذا البيت: "شفيع إسماعيل في الآخرة محمد والعترة الطاهرة"، في خاتمه الآخر. واعتَبَرَهُ العالم الإمامي **ابن شهرآشُوب المازندراني** (588هـ) منهم، ومن شعراء أهل البيت المجاهرين. وأَكَّدَ المؤرخ الشيعي **يحيى بن حميد بن ظافر الطائي الحلبي** (630هـ)، المعروف **بابن أبي طي**، في كتابه (**تاريخ الإماميَّة**)، أنَّ الصاحب كان إماميًا، وخَطَّأَ من زعم أنه كان معتزليًا. وقيل إنَّ **رَضِيّ الدين ابن طاووس** (664هـ) عَدَّهُ من الإماميَّة. وَجَزَمَ أنَّه من الإماميَّة جملةٌ، منهم: **زين الدين العاملي** المعروف بالشهيد الثاني (965هـ)، **ونور الله المرعشي** (1019هـ)، **ومحمد تقي المجلسي** (1070هـ)، وولده **محمد باقر المجلسي** (1111 هـ). وقال **الحر العاملي** (1104 هـ) عنه: "كان شيعيًا إماميًا أعجميًا"، وقال: "وبعض العامة يتهمه بالاعتزال، وهو برئ منه بعيد عنه". وكثيرٌ من علماء الإماميَّة المعاصرين -كعادتهم في نسبة المشهورين إلى مذهبهم- يقطعون بإماميته. يقول **محسن الأمين**: "لا ريب في تشيعه وكونه إماميًا اثني عشريًا.. والصحيح الذي لا ريب فيه ما قدمناه، من أنَّه شيعيٌّ اثنا عشريّ، لا معتزليٌ ولا حنفيٌ ولا زيديٌ". ويقول **عبد الحسين الأميني**: "إنَّ كون الصاحب من علية الشيعة الإمامية مما لا يمتري فيه أي أحدٌ من علماء مذهبه الحق".

وملخص أدلة وشواهد الإماميَّة على إماميَّة **الصاحب بن عبَّاد** وعدم انتمائه إلى المعتزلة أو إلى فرق الشيعة الأخرى، هي:

1- أنَّه كان يعظم شيوخ الإماميَّة ويكرمهم.

2-أنَّ جملة من شيوخ الإماميَّة ألف له كتابًا أو أهداه له.

3- أنَّ له جملة من القصائد في مدح أهل البيت.

4-أنَّه كان يلبس خاتمًا فيه شعارات موالية لأهل البيت.

وليس يصح من هذه النقاط واحدة لتكون شاهدًا فضلاً أن تكون دليلاً. فكونه يعظم شيوخ الإماميَّة ويكرمهم، لا يعني إلا كما يعني تعظيمه وإكرامه لشيوخ الزيديَّة، بل إنَّ تعظيمه وإكرامه لشيوخ المعتزلة أعظم وأشد. أما أشعاره في حب أهل البيت، وما نُقِشَ على خاتمه من شعارات الحب والولاء لأهل البيت، فلا يعني ذلك أنَّه صار بها إماميًّا، بل تعني أنَّه كان مُتشيِّعًا لهم محبًا ومعظمًا، مثله مثل بقية فرق الشيعة الأخرى كالزيديَّة مثلاً، أو من المائلين إلى التشيع بشكلٍ عامٍ من غير انتماءٍ مذهبي مخصوص.

أما ما يخص أنَّ جملة من شيوخ الإماميَّة ألف له كتابًا أو أهداه له، فليسوا وحدهم الذين فعلوا ذلك، فالزيدية والمعتزلة –وغيرهم من المذاهب الأخرى- ألفوا له الكتب وأهدوه إيَّاها، بل وشرحت الزيدية والمعتزلة كتبه وكلامه في الاعتقاد الذي هو موافق لعقائدهم. وتأليف الشيخ **الصدوق** كتابه (**عيون أخبار الرضا**) بسبب بعض أبيات شعريَّة قالها **الصاحب بن عبَّاد** لا تعني أنَّه كان إماميًّا بقدر ما كان مُتَشَيِّعًا مائلاً إلى أهل البيت، معظمًا لهم ومحبًا. أما تأليف **الحسين ابن بابويه القُمي** كتابه له، فهذا يحتاج إلى تبيين وإيضاح؛ لأنَّه سيكون دليلاً على خلاف المقصود من إيراده. فقد قال **ابن حجر العسقلاني** (852هـ): "[**الحسين ابن بابويه القُمي**] ذَكَرَهُ **ابن النجاشي** فقال: كان من فقهاء الإمامية... وصَنَّفَ **كتاب نفي التشبيه**، وقدمه **للصاحب بن عباد**. وكان **الصاحب** يعظمه ويرفع مجلسه إذا حضر عنده". وظاهر ما نقله **ابن حجر** عن **ابن النجاشي** (450هـ وقيل: بعد 463هـ) أنَّ **الحسين ابن بابويه** قدم **للصاحب بن عبَّاد** كتاب (**التوحيد ونفي التشبيه**). لكن بالرجوع لنص **ابن النجاشي** نفسه نجده يقول: "له كُتُبٌ، منها: **كتاب التوحيد ونفي التشبيه، وكتابٌ** عمله **للصاحب أبي القاسم بن عباد**. أخبرنا عنه بها الحسين بن عبيد الله ". فالنجاشي فَرَّقَ بين الكتابين، بين كتاب (**التوحيد ونفي التشبيه**) وبين (**الكتاب الذي عمله للصاحب**)، ولم يُسم الكتاب الأخير الذي قدمه إلى **الصاحب بن عبَّاد**. وتابع **ابن النجاشي** على ذلك كثيرٌ ممن جاء بعده من علماء الشيعة.

ومما يُستغرب له سكوت معظم المصادر والمراجع الشيعيَّة الإماميَّة عن تسمية ذلك الكتاب الذي قدمه **الحسين ابن بابويه** إلى **الصاحب بن عبَّاد**. لكنَّ يبدو إذا عُرِفَ اسمه زال ذلك الاستغراب. يقول العالم الإمامي **إعجاز حسين**: "**كتاب الرد على الرافضة**، للشيخ أبي عبد الله الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، عمله **للصاحب ابن عباد**". قلتُ: وهذا العنوان في غاية الأهميَّة، إذ إنَّه يُشير إلى أنَّ ما قدمه **الحسين ابن بابويه** إلى **الصاحب بن عبَّاد** ليس إلا كتابًا في نقض عقائد الإماميَّة، إذ مصطلح (**الرافضة**) يطابق مصطلح (**الإماميَّة**)، ولعل الكتاب في نُصرة عقائد الزيدية. **والسؤال المهم هنا**: هل رجع **الحسين ابن بابويه** عن إماميته؟ أو كان ذلك منه تزلفًا لذلك الوجيه؟ أم تَقِيَّةً؟

وعلى أي حالٍ، فليس فيما قدمته الشيعة الإماميَّة ما يُصلح لإثبات انتماء **الصاحب بن عبَّاد** إلى مذهب الإماميَّة، بل غاية ما فيه هو إثبات تَشَيُّعه.

لقد نشأ **الصاحب ابن عبَّاد** حنفيًا في الفروع معتزليًا في الأصول، وظل كذلك يتبني ويدعم مذهب أبي حنيفة الفقهي إلى جوار دعمه مذهب المعتزلة في الاعتقاد. وهو في الحقيقة من علماء المعتزلة، الذين يؤكدون عقيدتهم في رسائلهم الدينية، وله كتبٌ عديدةٌ صريحةٌ وواضحةٌ في تقرير عقيدة المعتزلة ونصرتها، ومنها **مثلاً**: كتاب التذكرة في الأصول الخمسة، ورسائل الصاحب بن عباد، ورسالة في الهدى والضلال، والإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل، وقصيدة في أصول الدين، وكتاب نهج السبيل في الأصول، وكتاب في علم الكلام شرحه **القاضي عبد الجبار الهمذاني**.

وكان أبوه **عبَّاد بن عباس** (335هـ) هو أول أستاذ له، وكان عبَّاد من علماء المعتزلة، وله مؤلفات في الدفاع عن مذهب المعتزلة، وكان وزيرًا **لركن الدولة البُويهي**. وفي فترة لاحقة، تولي **الصاحب بن عبَّاد** الوزارة **للبويهيين** سنة 366هـ، وفي وزارته مَكَّنَ للتعاليم المعتزليَّة من التدريس بين طلاب العلم والانتشار بين عامة الناس. وكان العالم المعتزلي المعروف **عبد الجبار الهمذاني** (415هـ) من المقربين إلى **الصاحب** والمُعَظَّمِين عنده، حتى أسند له في سنة 367هـ منصب قاضي القضاة، وفوَّضَ إليه قضاء

همذان والجبال وقزوين.

وكان **الصاحب بن عبَّاد** في وزارته شديد الحرص على نشر مذهب المعتزلة، ليس بين العلماء والمثقفين فقط، بل حتى بين عامة الناس والبسطاء أيضًا، حيث كان يجعل لهم دعاة خاصين بهم، يُعرفون باسم: (**دُعاة الصاحب**)، يتعهدونهم بالدعوة وبث معتقد الاعتزال باللغة العربية واللغة الفارسيَّة. فقد كان عند **الصاحب بن عبَّاد** فريقٌ من "الدعاة يأمرهم بالتردد إلى الأسواق، وتحسين الاعتزال للبَقَّال والعطَّار والخبَّاز". وكانت المصادر تنقل عن بعض دعاة **الصاحب بن عبَّاد** في مدينة الريِّ وهم يتحدثون بأنفسهم عن جهوده المبذولة في خدمة الاعتزال، وأثره في تحويل العامة إلى مذهب المعتزلة.

وتُؤكد المصادر على أنَّه كان حريصًا على نشر الاعتزال في المدن المجاورة، وكان يُسَرُّ بقبول النَّاس -في البلدان التي كانت مُسْتَغْلِقة أمام مذهب الاعتزال- اعتناق مذهب المعتزلة، ويفرح بذلك ويذكره في رسائله، وأنَّ ذلك كانت نتيجة جهوده. يقول **الصاحب بن عبَّاد:** "كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده، والتصديق بوعده ووعيده... وقد أعان الله على بث كلمة الحق، وسَمِعَ الأكثرُ على لين ورفق، وليس تمنعني كثرة شغلي من الانتصاب في بعض ليلي للمذاكرة والتبيين، والتكشيف والتلخيص، فقد صلح خلقٌ كثيرٌ، والحمد لله رب العالمين". وكان من عادته إرسال كتبه الاعتزاليَّة إلى المدن والبلاد والأطراف التي فيها أصحابه من المعتزلة، لدعمهم وتعليمهم. ويقوم بتشجيع وتثبت المدن والبلاد التي على مذهب الاعتزال، ويوصيهم بالثبات على دينهم واعتقادهم، ويثني عليهم وعلى ما هم فيه من نعمة الاعتقاد الصحيح، وفي المقابل يذكرهم بمثالب خصومهم في الاعتقاد كالمشبهة والجبرية. ويدعوهم إلى أهمية التواصل معه والاستمرار في مكاتبته، ويذكر لهم دوره المحوري في زوال المذاهب العقديَّة المخالفة لمذهب المعتزلة، وتَحَوُّل النَّاس إلى مذهب الاعتزال.

أما أثره مع العلماء، فكان يدعوهم إلى مذهب المعتزلة بالترغيب والترهيب، بالعطايا والهبات لمن اعتنق مذهبه، أو بالتهديد والوعيد لمن خالفه، وكان مجلسه من مجالس الدعوة إلى هذا المذهب، يتقرب إليه العلماء ويقربهم منه. فقد أرسل **الصاحب بن عبَّاد** إلى **أبي الحسن الشقيقي البَلْخِيّ** توقيعَه في رُقْعَةٍ جاء فيها: "من نَظَرَ لدِينهِ نظرنا لدُنْياه، فإن آثرتَ

العَدْلَ والتَّوحِيدَ؛ بسطنا لك الفَضْلَ والتَّمهيدَ، وإن أقمتَ على الجبرِ؛ فليس لكسرِكَ مِن جبر". وكذلك فعل مع **الفقيه الحنفي محمد الزَّعفَرانيّ البغدادي** (392هـ)، رئيس فقهاء الحنفيَّة، حيث قال له الصاحب بن عباد سنة 369هـ مُهدِّدًا إياه حين قابله في الريِّ: "أيها الشيخ سرّني لقاؤك، وساءني عناؤك، ولقد بلغني عداؤك، وما خيَّله إليك خُيَلاؤك، وأرجو أن أعيش حتى يُردّ عليك غُلَواؤُك، ما كان عندي أنك تُقدِم على ما أقدمتَ عليه، وتنتَهي في عَداوَتِك لأهل العَدْل والتوحيد إلى ما انتهيت إليه، ولي معك إن شاء الله نهارٌ له ذيل، وليل يتبعُه ليل، وثُبورٌ يتَّصل به وَيل، وقَطْر يَدوم ومعه سيل، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. فقال له الزعفراني: حسبنا الله ونعم الوكيل".

وكان من الطبيعي أن تعيش المعتزلة في هذه الفترة التاريخية عصرها الذهبي الثاني، حيث دعمتها السلطة السياسية بقوة، من خلال المال والجاه والتدريس والوظائف والدعاة، بالترهيب والترغيب، وفيها ظهر المتأخرون من عظماء وكبار علماء المعتزلة، وفيها جُمِعَ تراث المعتزلة، وكُتِبَتْ أهم وأعظم وأوسع كتب مذهب الاعتزال.

وتشَيُّع **الصاحب بن عبَّاد**، إلى جوار ثبوت اعتزاليَّته، أمر لا جدَال فيه، وإنما الخلاف في نوع التَشَيُّعِ الذي يعتنقه وينتمي إليه. ويبدو أنَّ الأقرب إلى الصواب أنَّه مُتَشَيِّعٌ بالمعنى الأعم أو زيديٌّ بالمعنى الأخص، وهو الأقرب، وهذا ما قاله عنه العلماء والمختصون به، ولما دَلَّت عليه حقيقة حاله، وما كتبه هو بنفسه. فقد نَصَّ **أبو حيان التوحيدي** (414 هـ)، وهو المعاصر **للصاحب بن عبَّاد** والذي عرفه عن قرب، أنَّه: "يتشيع لمذهب **أبي حنيفة** ومقالة الزيدية". وكذلك ما ذَكَرَهُ **النديم** (380هـ) عنه، وهو الشيعي المعتزلي البغدادي المعاصر **للصاحب بن عبَّاد**، حيث قال: "له من الكتب: ...كتاب (**الزيدية**)،... كتاب (**الإمامة**)، يذكر فيه تفضيل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وتثبيت إمامة من تقدمه". وهذا الكتاب الأخير ثابت النسبة إلى **الصاحب بن عبَّاد** باسمه ووصفِ مضمونهِ السابق، حيث نسبه له كبار العلماء والمؤرخين. ودلالته ظاهرةٌ في أنَّه ليس على اعتقاد الإماميَّة، إذ الإماميَّة قاضيةٌ بردة وكفر كل من تقدم على علي بن أبي طالب في الخلافة من الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم أجمعين.

يقول العالم الإمامي الميرزا **علي بن موسى الخراساني التبريزي** (1330هـ)، الملقب

بثقة الإسلام، مرجحًا أنَّه من المعتزلة: "وعندي كونه من المعتزلة أقرب... ويؤيده... نسبة **ابن خلكان** إليه كتاب (**الإمامة**)، يذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، ويثبت إمامة من تقدمه". كذلك أَكَّدَ الشيخ الإماميّ **ابن طاووس** (664هـ) أنَّ شيخ الإماميَّة **المفيد** (413هـ)، وتلميذه **الشريف المرتضى** (436هـ)، قد نسبا الصاحب بن عبَّاد إلى جانب المعتزلة. كما أنَّ **المرتضى** أَلَّفَ كتابًا يرد فيه على الصاحب بن عبَّاد تعصبه للمعتزلة، سماه: (**الإنصاف في الرد على ابن عبَّاد**). وعَدَّهُ **ابن طاووس** نفسه من المعتزلة مع ميلٍ إلى التشيع.

والصاحب بن عبَّاد نفسه يشهد بنفسه على مذهبه، حيث جاء في قصيدة يشرح فيها مذهبه العقديّ، ما يلي:

قالت: فما اخترت من دينٍ تفوزُ بهِ *** فقلتُ: إني شيعيٌّ ومعتزلي

وقد نَصَّ كبار علماء الطائفة الإماميَّة، **كابن النجاشي**، **والطوسي** (460هـ) وغيرهما، على أنَّ **المفيد** (413هـ) ألف كُتُبًا في الرد على المعتزلة والزيديَّة، ومن ذلك كتابه الذي سماه بـ: (**النقض على ابن عبَّاد في الإمامة**). ولو كان الصاحب بن عبَّاد إماميًا وليس زيديًا أو مائلاً إلى التشيع وحسب لما احتاج **ابن المعلم** أن ينقض اعتقاده في الإمامة.

ومما يدل أيضًا على أنَّ تَشَيُّعَه كان ميلاً أو كان زيديًا لا إماميًا، ما ذَكَرَهُ العالم والإمام الزيديّ المعروف الناطق بالحق **يحيى بن الحسين الهاروني الحسني** (424هـ)، المعاصر للصاحب ابن عبَّاد والذي كان على صلةٍ وثيقة به وربطته به صداقة عميقة، في كتابه المهم (**الدعامة في تثبيت الإمامة**)*، حيث نَصَّ في مقدمته أنَّ كتابه هذا عبارةٌ عن مادة جُمِعَتْ من أطرافِ كُتبٍ عدةٍ، وهُذِّبَ من نُكَتٍ مُستَفَادةٍ من مجالس **الصاحب بن عبَّاد**، وأنَّه شاور الصاحب في شأنِ هذا الكتابِ، مستفيدًا منه لأجل نصرة مذهب الزيديَّة في الإمامة.

والدولة البويهيَّة نفسها مع تشيعها ودعمها ومناصرتها كثيرًا للمتشيِّعة، ومنهم الإمامية، إلا أنَّها لا تتبنى عقيدة الإماميَّة وغلوها العَقَدِّي في أمورٍ كثيرةٍ، بل كانت في معظم أحوالها زيدية، قد أثرت فيها أصولها الزيدية السابقة. يقول **الحاكم الجُشَمِيّ**: "آل

بويه أكثرهم يميل إلى العدل والتوحيد ومذهب الزيديَّة". ونَصَّ **نجم الدين الخونجي** (٦٦٣هـ) على أنَّه معتزلي، وقال **الذهبي** (748هـ) عن **الصاحب بن عبَّاد**: "كان شيعياً كآل بويه، وما أظنه يسب، لكنه معتزلي". وقال **عبد الرحيم العباسي** (963هـ)"كان شيعيًا جلدًا كآل بويه معتزليًا". وقال الإمام **يحيى بن الحسين بن القاسم** (1100هـ): "روى **الصاحب بن عبَّاد** أن عنده بخط **الناصر للحق** [=الحسن بن علي العلوي (304هـ)، وهو ثالث ملوك الدولة العلوية بطبرستان] الترحم عليهما [= أبي بكر وعمر رضي الله عنهما]".

*** بعض الوقفات:**

أولاً: حَقّقَ أحد الباحثين المعاصرين، وهو الدكتور **ناجي حسن**، هذا الكتاب وطبعه عدة مرات تحت أسماء مختلفة، منها واحدة تحت اسم (**الزيدية**)، ونسبه إلى **الصاحب بن عبَّاد**، وذَكَرَ أنَّ هذا الكتاب بمثابة الدليل على زيديته، وأنَّ مَنْ قال بخلافهِ فلم يستند قوله إلى دليلٍ واقعيٍ. لكنَّه لم يُقدم دليلاً واحدًا على صحة نسبة تأليف هذا الكتاب إلى **الصاحب ابن عبَّاد**، بل قال في الهامش عند مقدمة نص الكتاب: "لا بد من التنبيه هنا أننا لا نعرف على وجه التحقيق الشخص الذي دَوَّنَ هذا الكتاب عن **الصاحب بن عبَّاد**، إلا أنَّه كُتِبَ في أحد مجالس الصاحب وبمحضرهِ وبإملاءٍ منه". **قلتُ:** وليس في المقدمة ما يُفيد أنَّ المؤلف هو **الصاحب**، وإنما المقدمة تُفيد أنَّ هذا الكتاب هو موجزٌ ومختصرٌ في نُصرة مذهب الزيديَّة في الإمامة، جُمِعَ من أطرافِ كُتبٍ عدةٍ، وهُذِّبَ من نُكَتٍ مُسْتَفَادةٍ من مجالس **الصاحب بن عبَّاد**، وأنَّ مؤلفه معاصرٌ للصاحبِ مُشاورٌ له في شأنِ هذا الكتابِ مستفيدٌ منه لأجل نصرة مذهب الزيديَّة في الإمامة. والكتاب في الحقيقة يعود إلى العالم الزيدي المعروف **الناطق بالحق أبي طالب يحيى بن الحسين بن هارون**، كان هو وأخوه **المؤيد بالله** معاصرين **للصاحب ابن عبَّاد** وعلى صلةٍ به وربطتهم به صداقة عميقة، حيث **الناطق بالحق** ولد سنة (340هـ) ومات سنة (424هـ). واسم كتابه هو (**الدعامة في تثبيت الإمامة**). وقد أكد العالم الزيدي المعاصر **مجد الدين المؤيدي** أنَّ المحقق **ناجي حسن** قد أخطأ في عنوان الكتاب وفي نسبته إلى **الصاحب بن عبَّاد**، وذَكَرَ **المؤيدي** أنَّه قابل

النسخة المطبوعة على الأصل المخطوط، وهو كتاب (**الدعامة**)، وقد تأكد له أنَّ الكتاب هو كتاب الإمام الزيدي **الناطق بالحق**. **قلتُ**: وتوجد من كتاب الدعامة نُسَخٌ خطيَّة عديدة، تَنُصُّ على اسمه كاملاً وعلى اسم مؤلفه، وقد تصفحتُ المخطوط بنفسي فوجدتُه هو عين الكتاب الذي حققه الدكتور **ناجي حسن**. وللكتاب جملةٌ من النُسَخِ الخَطِّيَّة، عندي، منها: صورة يمنيَّة الأصل، بمكتبة السيد العلامة **محمد بن عبد العظيم الهادي**، بصعدة، باليمن، وعليها اسم المؤلف كاملاً، واسم الكتاب (**الدعامة في الإمامة**). وهذا النسخة هي التي قارنتُ نصها بالكتاب الذي حَقَّقَهُ الدكتور **ناجي حسن**. أضف إلى ذلك أنَّ العالم والمؤرخ الزيدي **مفرِّح بن أحمد الرَبَعي**، كان حيًّا في القرن الخامس الهجري، قد نَصَّ على أنَّ كتاب **الدعامة** هذا هو للسيد **الإمام أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني الحسني**، ونَقَلَ منه جملة من النصوص الطويلة. كذلك فإنَّ كتاب **الدعامة** عليه عدة شروحات من علماء الزيدية، وفيها نصهم أنَّه **للناطق بالحق**، وممن شرحه **أبو الحسن علي بن الحسين الطبري الزيدي**، في كتابه: (**المحيط بأصول الإمامة**) شرح كتاب **الدعامة**، وذكر اسم الكتاب كاملاً واسمه مؤلفه.

ثانيًا: يقول **محسن الأمين**: "وقوله: (معتزليًا) لا ينافي التشيع، لأنَّ المراد موافقة المعتزلة في بعض العقائد المعروفة التي تشاركهم فيها الشيعة". **قلتُ**: كلام **الصاحب بن عبَّاد** في كتبه الاعتقاديَّة ظاهرٌ في اعتزاله، ونقض كبار علماء الإماميَّة عليه في الإمامة وغيرها قاضٍ بأنه ليس منهم، وأنَّه كان شيعيًّا على طريقة الزيدية. وقد قام أحد مؤرخي وعلماء الإماميَّة المعاصرين، وهو **محمد حسن آل ياسين** (1427هـ)، بمحاولة دراسة مسألة انتماء **الصاحب بن عبَّاد** العقدي والمذهبي، بعد أن أورد جملة من أقوال ونصوص العلماء المتضاربة من المذاهب المختلفة. وقام بتحليل نصوص الصاحب بن عبَّاد نفسها المعتزليَّة والشيعيَّة. وانتهى إلى أنَّ الرجل وُلِدَ معتزليًا ومات كذلك، ولم ينتقل عن الاعتزال. إلا في مسألة الإمامة فإنَّه يرى أنَّ **الصاحب بن عبَّاد** قد ذهب إلى قولين فيها: القول الأول: وهو ما في كتبه العقدية، وهو الاعتقاد بعدم وجود نَصٍّ جليٍ على إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والقول الثاني: وهو ما في بعض أشعاره، وهو الاعتقاد بوجود نَصٍّ جليٍ

على إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأنَّ الرأي الأول يُمثل رأيه في شبابه، وأنَّ القول الثاني هو ما يُمثل مذهبه الأخير الذي اسْتَقَرَّ عليه مع بقائه على الاعتزال فيما دون ذلك. **قلتُ:** هذا زعمٌ مجردٌ لم يقدم عليه **آل ياسين** أي دليلٍ، فإنَّ كل ما في كتب الصاحب بن عبَّاد وأشعاره الثابتة له قاطعةٌ بأنَّه معتزليٌ بالدرجة الأولى ثم زيدي مُتَشَيِّعٌ، بل فيها الرد على الإماميَّة. فقد نَصَّ –مثلاً– في كتابه (**الإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل**) على أنَّ القول بالنص الجلي هو زعم طائفة من الشيعة، ثم كَرَّ عليهم بالنقض، ونَصَّ أنَّهُ قولٌ فاسدٌ، وأنَّ رأي العدليَّة –الذي هو منهم– خلاف النص الجلي، وأنه مع إجماع الأمة على تصويب خلافة الخلفاء الذين قبل علي رضي اله عنهم. وإنما استند **آل ياسين** في نسبة القول بالنص الجلي إلى **الصاحب بن عبَّاد** إلى بعض أبياتِ شعرٍ منسوبة إليه، وليس فيها ما يدل دلالة أكيدة على القول بالنص الجلي. ولا شك أنَّ العزوف عن نصوصه في متنوه العقديَّة الواضحة المفصلة إلى بعض أشعاره ليس منهجًا قويمًا للباحث المنصف والجاد. فالأشعار تعتريها –كثيرًا– الميول العاطفيَّة، وتمتزج بها العبارات الجانحة المفعمة بالحماسة. يقول **قاضي القضاة عبد الجبار الأسدآبادي**، وهو أقرب النَّاس إلى **الصاحب بن عبَّاد** وأكثرهم اختصاصًا به: "مولانا الصاحب شيعي الشعر، معتزلي التصنيف".

ثم لو افترضنا صحة ما افترضه **آل ياسين** جدلاً، فليس في أشعاره أي إشارة إلى تأخرها زمنيًا عن تاريخ كل كتبه العقديَّة وأشعاره الأخرى. بل نَصَّ **الحاكم الجُشَمِيّ** على عكس ذلك، أي أنَّ **الصاحب بن عبَّاد:** "كان في ابتداء أمره إماميًا، ثم رجع إلى الاعتزال...وكان الظن أنَّه زيديًّا". ولا دليل قاطع يمكن أن يؤخذ من شعره حول التشيع على أنَّ مذهب الإماميَّة بعينه هو اختياره الحقيقي في الاعتقاد، وإنما هو ميلٌ عاطفيٌ نحو التشيع. ولو افترضنا وسلمنا جدلاً أنَّهُ قائلٌ بالنص الجليّ، وهو غير مسلمٍ بهِ، فإنَّ ممن ينتحل مذهب الزيديَّة في الإمامة من قال به، كطائفة من الجارودية، وكذلك قال بالنص الجليّ بعض المعتزلة، كالنَّظَّام. وهؤلاء ليسوا إماميَّة.

ثالثاً: ذَكَرَ **الحاكم الجُشَمِيّ**، وهو تلميذ تلاميذ **القاضي عبد الجبار**، أنَّ **الصاحب بن عبَّاد** كان في بداية أمره إماميًا. قال عنه: "كان في ابتداء أمره إماميًا، ثم رجع إلى

الاعتزال.. وكان الظن أنَّه زيديًّا ". **قلتُ: الصاحب بن عبَّاد** وُلِدَ ونشأ معتزليًا، في أسرة معتزليَّة حنفيَّة، ويُشير كلام **الحاكم الجُشَمِيّ** عنه أنَّه مرت عليه فترة كان فيها إماميًا، ثم رجع مرة أخرى إلى الاعتزال، وبقي فيه التَشَيُّع، لكن على مذهب الزيديَّة. هذا الافترض يَثبُت إذا كان كلام **الحاكم الجُشَمِيّ** -بشأن تحول **الصاحب** إلى الإماميِّة ورجوعه عنهم - دقيقًا.

الخلاصة: أنَّ **الصاحب بن عبَّاد** وُلِدَ ونشأ معتزليًا، في أسرة معتزليَّة حنفيَّة، ومات على مذهب **الاعتزال**، مع التَشَيُّع على مذهب **الزيديَّة**.